

المقامات اللزومية لأبي الطاهر السرقسطي

وصدور ترجمة لها إلى اللغة الإسبانية

د. إكناثيو فيراندو

(جامعة قادس، إسبانيا)

صدر مؤخرا عن دار جامعة سرقسطة الإسبانية للطباعة والنشر كتابي الذي يحتوي على الترجمة الإسبانية لـ "المقامات اللزومية"⁽¹⁾ لأبي الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي (ت 1143/538). وفي هذه المقالة سوف أقدم أهم ملامح هذا المؤلف الأندلسي ومقاماته الشهيرة بالإضافة إلى بعض الملاحظات حول عملية الترجمة التي قمت بها.

من المعلوم أن مقامات الحريري وصلت إلى أرض الأندلس في وقت مبكر، أي بعيد تأليفها، بفضل عدد من الأندلسيين الذين أُتيحت لهم فرصة سماعها وتلقيها من الحريري نفسه أو من تلميذ من تلاميذه أثناء رحلاتهم إلى المشرق، ومن هؤلاء، طبقا لما ذكره إحسان عباس في كتابه "تاريخ الأدب الأندلسي"⁽²⁾، أحمد بن محمد بن خلف الشاطبي والحسن بن علي بن الحسن البطلوسي وأبو الحجاج القضاعي. فأقبل أدباء الأندلس على دراسة هذه المقامات وشرحها بشغف، ولا بد في هذا الصدد من الإشارة إلى أبي العباس أحمد الشريشي صاحب الشرح المعروف لمقامات الحريري. وليس هذا فحسب، فقد كثر في الأندلس عدد المؤلفين الذين كتبوا على منوال الحريري أي مقلدين أسلوب مقاماته الرفيع تقليدا صريحا. إن قائمة هؤلاء المقلدين طويلة جدا لا

(1) Las sesiones del zaragocí. Relatos picarescos (maqāmāt) del siglo XII. Estudio preliminar, traducción y notas de Ignacio Ferrando. Zaragoza : Pressas Universitarias de Zaragoza, 1999.

(2) بيروت، دار الثقافة، 1981، الطبعة السادسة، المجلد الثاني "عصر الطوائف والمرابطين"، ص

مجال هنا لإدراجها⁽³⁾ مع ملاحظة أن السرقسطي هو المؤلف الوحيد من بينهم الذي حذا حذو الحريري في كل تفاصيل فنه، فقد ألف على غراره خمسين مقامة تنص على قصة الشحادة والكدية والحيلة، بطلاها شخصان خياليان هما الراوي والمكدي. أما الآخرون فلم يميزوا على وجه العموم فنّ المقامة الأصلي عن فن الرسالة إذ استعملوا قوالب المقامة الشكلية دون مميزاتها القصصية من أبطال وأحداث وذلك لأغراض شتى بعيدة كل البعد عن أغراض المقامة الأصلية.

وقبل أن نتكلم عن السرقسطي وعن مقاماته اللزومية ينبغي أن نحدد سبب هذا الحرص على فن المقامة لدى أهل الأندلس من سماع وشرح ومعارضة. يقال عادة في هذا الصدد: إنه لا غرو في ذلك الحرص المذكور إذ لا يخفى أن ثقافة الأندلس بشتى جوانبها بنيت على غرار ثقافة المشرق التي هي بمثابة المنبع الذي نهل منه كتاب الأندلس عبر تاريخها الممتد ابتداء من عهد الإمارة⁽⁴⁾. فما من فن أدبي جديد ظهر في المشرق إلا وأقبل عليه مثقفو الأندلس دراسة ومعارضة. وبطبيعة الحال ليست المقامة باستثناء عن هذه القاعدة المطردة.

من هو السرقسطي هذا؟ هو أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله بن إبراهيم التميمي جمال الدين المازني السرقسطي الأندلسي (ابن) الأشركيوي. إنه من مواليد الثغر الأعلى الأندلسي. ولعل مسقط رأسه مدينة سرقسطة بعينها أو قرية تبعد عنها نحو سبعين كيلومترا اسمها اشتركيوي نظرا إلى تلك النسبة الأخرى له وهي الأشركيوي. أما أوائل حياته فتسكت المراجع عنها والأرجح أنه قضى سنواته الأولى في سرقسطة التي كانت وقتذاك مركزا من مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس.

(3) انظر القائمة الكاملة في الكتاب المذكور لإحسان عباس، ص 305-307.

(4) أذكر على سبيل المثال قصة زرياب المغني والأديب البغدادي الأصل في أيام الأمير الحكم وما أتى به إلى الأندلس من تيارات ثقافية جديدة نالت إعجاب أهل الأندلس.

كان السرقسطي ممن يطلبون العلم ويدرسون فنونه المختلفة من فلسفة وحديث وقرآن ولغة ونحو وشعر على أيدي عدة شيوخ⁽⁵⁾. تذكر المصادر التي ترجمت له أنه جاب الأندلس طالبا للعلم وزار عدة مدن أندلسية منها بلنسية وشاطبة ومرسية وغرناطة إلى أن استقر في مدينة قرطبة حيث توفي سنة 1143/538 من زمانه طاولته ثلاثة أعوام. والغريب في الأمر أنه على ما يبدو لم يرق برحلة إلى المشرق لتكميل دراسته والسماع من كبار العلماء هناك كما اعتاد علماء الأندلس أن يفعلوا، لا سيما من نهل منهم من ينابيع المشرق بشغف كما هو حال السرقسطي نفسه. وخالصة القول: إن كاتبنا حصل قدرا كبيرا متنوعا من العلوم لكننا لا نكاد نعرف شيئا عن حياته وعن المناصب التي تولاها أو الأفكار التي مال إليها. إنما يمكننا القول بأن قراءة مقاماته وأشعاره تدل على موقف نفساني يغلب عليه التشاؤم حيال الأحداث الكبرى التي شاهدها السرقسطي كسقوط الطوائف وظهور دولة المرابطين وأخيرا تقدم الفتح النصراني الذي استولى على مسقط رأسه سرقسطة سنة 1118/512. ولعل في ذلك سببا من أسباب تنقله في بقاع الأندلس المختلفة.

وقبل أن نتناول موضوع المقامات اللزومية يجدر بنا أن نذكر أن السرقسطي كان شاعرا، فبالإضافة إلى الأشعار الكثيرة الموجودة داخل المقامات حافظت المراجع وكتب التراجم على قطع متفرقة من قصائده. هذه الأبيات القليلة جمعها الأستاذ مونرو وترجمها إلى اللغة الإنجليزية في المقالة المذكورة أعلاه⁽⁶⁾. ويقول مونرو عند تحليله لهذه الأبيات إنها تثبت أن السرقسطي كان شاعرا بارعا متميزا على خلاف ما توحى به قراءة الأبيات الموجودة داخل المقامات من تكرار الأفكار وانعدام الحس الشعري

(5) انظر قائمة هؤلاء الشيوخ في تحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف للمقامات اللزومية، ص. 15-23 وكذلك معلومات الأستاذ مونرو في:

J.T. Monroe, "Al Saraqūṣṭī, ibn al-Aṣṭarkūwī : Andalusī Lexicographer, Poet, and Author of al-Maqāmāt al-Luzūmiyya", Journal of Arabic Literature 28 (1997), 1-3.

(6) ص ص 31-33.

الأصيل. هذا وللسرقسطي كتاب آخر وصلنا في مجال اللغة عنوانه "كتاب المسلسل في غريب لغة العرب"⁽⁷⁾.

أما المقامات التي تدور حولها هذه السطور فهي كما سبق لي أن ذكرت منسوجة على منوال مقامات الحريري سواء في الأسلوب الرفيع المتصنع نوعا ما أم في مضمون الحكاية. لكنها ليست قالبا جميلا بدون أي مضمون كما ادعى بعض الباحثين في الماضي وما يزالون يدعون في الوقت الحاضر. وإذا أردنا إبراز الملامح الخاصة التي تميز المقامات اللزومية عن نظيرتها الحريرية فلا بد من الإشارة إلى أمور ثلاثة :

1- عدد المقامات : يوجد في تحقيق الدكتور بدر أحمد ضيف خمسون مقامة في حين أن تحقيق الدكتور الوراكلي يربو فيه العدد على الخمسين فيصبح تسعا وخمسين مقامة. إن وجود هذه المقامات التسع الزائدة التي نشرها الوراكلي في ملحق يرجع إلى خلاقات في المخطوطات. فبالرغم من أن كل مخطوطة فيها خمسون مقامة لا غير، فإن بعضها يحتوي على مقامات غير موجودة في المخطوطات الأخرى، وبالعكس، مما جعل عدد المقامات لا يزيد على كل حال عن الخمسين مقامة. وقد شك الباحثون في صحة هذه المقامات التسع اعتقاد منهم أنها ليست للسرقسطي بعينه بل لأحد من تلاميذه⁽⁸⁾.

2- يضاف في بعض المقامات شخص ثالث إلى الشخصين المؤلفين في المقامات من راوٍ ومكذّب. هذه الشخصية الثالثة واسمها المنذر بن حمام تقوم بدور الراوي دون أي مشاركة في أحداث القصة. أما الراوي فاسمه السائب بن تمام ويدعى المكدي أبا حبيب السدوسي.

(7) تحقيق محمد عبد الجواد وإبراهيم الدسوقي الباسطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1981.

(8) هكذا يقول حسن عباس في كتابه "فن المقامة في القرن السادس"، الإسكندرية، دار المعارف،

1986 ص. 50-59-250-269.

3- كما هو واضح من اسم الكتاب، التزم السرقسطي بلزوم ما لا يلزم على ما سنه سابقا أبو العلاء المعري في لزوميته. وهذه طريقة خاصة تبنى فيها القافية على لزوم حرف زائد على الأقل قبل حرف الروي. وبالرغم من هذا التكلفة وتلك المقترضات الشكلية فإن سجع المقامات اللزومية "سهل سائغ لا يحس قارئه فيه تعسفا أو مغالاة"⁽⁹⁾. زيادة على ذلك "قلما عثرنا على أثر التكرار فيهما (أي اللفظين المترادفين) ... والألفاظ ... لم يأت كثير منها زائدا على الحاجة"⁽¹⁰⁾.

ونظرا إلى ما أورده النقاد القدامى وأثبتته المعاصرون كانت المقامة اللزومية معروفة منتشرة في دار الإسلام، ولعل ما يدل على شهرتها وسمعتها وجود عدد من المخطوطات لا يقل عن عشر مخطوطات حُوفظ عليها في أماكن مختلفة من العالم (إيطاليا وألمانيا وفرنسا وتركيا والمغرب). وقد أشار إلى السرقسطي ومقاماته عدد لا بأس به من مؤلفي كتب التراجم من أمثال ابن بسام وابن بشكوال والضبي وابن سعيد وابن الأبار وغيرهم كثير، مع ملاحظة أن هذه الكتب المذكورة لم تزودنا إلا بالنزر اليسير عن السرقسطي وحياته رغم التقدير الكبير والمكانة المرموقة الذي احتلها بين العلماء العرب مما يجعل ذلك مثار تساؤل. أما في عصرنا الحالي فمن الجدير بالذكر أن اسم السرقسطي أصبح شائعا في الدراسات الأدبية المتعلقة بالنثر الفني العربي، ولكن بدون أن يُعرف عنه الكثير وبدون أي تحقيق للمقامات اللزومية التي بقيت شبه مجهولة بين ثنايا المخطوطات حتى سنة 1982 عندما قام الدكتور بدر أحمد ضيف مشكورا بإصدار تحقيق كامل لها⁽¹¹⁾، وقد أشرنا إليه آنفا. فضلا عن هذا العمل القيم

(9) - هكذا يرى إحسان عباس في كتابه المذكور أعلاه، ص 318.

(10) - هذا ما يقوله محمد الهادي الطرابلسي في مقالة له عنوانها "مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطي"، في حوليات الجامعة التونسية 1988/28 ص 133. وهذه مقالة مهمة تبرز فيها أهمية دور الإيقاع والتجانس الصوتي في المقامات اللزومية.

(11) المقامات اللزومية للسرقسطي، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وعمل الدكتور حسن الوراكلي الذي نشر تحقيقا آخر لها سنة 1995⁽¹²⁾ بدأ العلماء سواء من العرب أم من غيرهم يدركون قيمة هذه المقامات وأهميتها الأدبية من خلال قراءة أصولها وليس من خلال تداول الأقوال المتكررة من مؤلف إلى مؤلف آخر فحسب.

ومن جملة ما كتب في الأوساط العلمية العربية عن المقامات اللزومية كتاب حسن عباس المذكور أعلاه الذي نجد فيه عدّة صفحات مخصصة للمقامات اللزومية فيها دراسة دقيقة معتمدة على تحقيق بدر أحمد ضيف. وكذلك صدرت المقالة المهمة السابقة الذكر بقلم محمد الهادي الطرابلسي وفيها نجد بعد التّقديم المعهود للمؤلف ولفن المقامة دراسة عميقة لعناصر الإيقاع في المقامات مع مقارنة إحصائية بمقامات الهمذاني والحريري فيما يخص عدد المقاطع الطويلة في فقراتها. والنتيجة التي يصل إليها صاحب تلك المقالة أن المقامات اللزومية أقوى إيقاعا وأكثر مرونة من مقامات الهمذاني وأنها تساوي مقامات الحريري من هذه الجهة.

أما في الغرب فقد شهدت الأوساط العلمية اهتماما متزايدا بالمقامات اللزومية ونشر عدد من البحوث الدائرة حولها. فقد قمت شخصا بكتابة بعض المقالات عنها ابتداء من سنة 1991. وضمن هذه المقالات ترجمة إسبانية كاملة لكل من المقامة البربرية وهي الثامنة والأربعون في تحقيق بدر أحمد ضيف و الحادية والأربعون في تحقيق حسن الوراكلي⁽¹³⁾ والمقامة الطريفية وهي الثامنة والأربعون في تحقيق بدر أحمد ضيف

(12) المقامات اللزومية. تأليف أبي الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي (ت1143/538)، الرباط، منشورات عكاظ. والحق يقال إن الوراكلي كان قد حقق المقامات سنة 1981 وذلك ضمن أطروحة الدكتوراه التي قدمها وناقشها بنجاح في جامعة مدريد الكومبلوتينسي، لكن ذلك العمل بقي غير منشور حتى سنة 1995.

I. Ferrando, " La maqāma barbariyya de al-Saraqusṭī", Anaquel de Estudios Arabes (1991), 119-128. (13)

والثالثة والأربعون في تحقيق حسن الوراكلي⁽¹⁴⁾. ولي أيضا دراستان حول أشعار له مكتوبة على صيغة المسمط في بعض المقامات⁽¹⁵⁾. أما الأستاذ الأمريكي المعروف جيمس مونرو، فقد كتب مقالين مهمين قدم في أولهما دراسة وافية دقيقة لحياة السرقسطي ومؤلفاته بالإضافة إلى ترجمة إنجليزية للمقامة البربرية⁽¹⁶⁾ في حين أنه ترجم في ثانيهما ثلاث مقامات وهي التاسعة عشرة، والعشرون أي الخمرية، والثامنة والعشرون في تحقيق الوراكلي وهي غير موجودة في تحقيق ضيف⁽¹⁷⁾. كل هذه البحوث والجهود تأتي تمهيدا لعمل آخر وهو ترجمة كاملة للمقامات اللزومية إلى لغة ثانية تيسر قراءتها لغير مجيدي لغة الضاد. وهذا المشروع القيم المفيد انكب عليه منذ سنين كل من الباحثين المذكورين : مونرو وأنا نفسي. وفي أواسط سنة 1999 صدرت أخيرا الترجمة الإسبانية الكاملة التي قمت بها خلال السنوات الأخيرة. أما ترجمة مونرو إلى الإنجليزية فيبدو أنها على وشك الصدور إن لم تكن قد صدرت في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور.

ومما لا شك فيه أن هناك أسئلة تطرح نفسها بالباح عند مجرد الحديث عن إمكانية ترجمة المقامات اللزومية إلى لغة أخرى : هل الترجمة مفيدة ؟ هل هي صعبة إلى حد

I. Ferrando, " La maqāma de Ṭarifa de al Saraquštī ", Al Qantara 18-1 (14) (1997), 137-151.

I. Ferrando, " Un poema estrófico (musammaṭ) en las Maqāmāt Luzūmiyya de as- (15) Saraquštī", estudios de dialectología norteafricana y andalusí EDNA 1 (1996) 215-229; I.Ferrando, " Dos poemas estróficos (musammaṭ) en las Maqāmāt Luzūmiyya de as- Saraquštī Al- Andalus-Magreb 4 (1988),135-153.

J.T. Monroe, " Al-Saraqūštī, ibn al-Aštarkūwī: Andalusī Lexicographer, Poet, (16) and Author of al-Maqāmāt al-Luzūmiyya", Journal of Arabic Literature 28 (1997), 1-37.

J.T. Monroe, " Al-Saraqūštī ibn al-Aštarkūwī (part II)", Journal of Arabic (17) Literature 29 (1998), 31-58.

يجعلها غير وافية بالنص الأصلي؟ وهل يمكن للمترجم تزويد القارئ بكل مدلولات الأصل العربي بكل تفاصيله وإشاراته وجمالياته؟ لنذكر أن بعض الدارسين عبروا عن شكوكهم حيال جدوى مشروع ترجمة مثل هذه المؤلفات. سأحاول في السطور التالية الإجابة على جميع هذه الأسئلة قدر المستطاع. أولاً فيما يخص إفادة الترجمة، لا يمكن أن يكون الجواب إلا بالإيجاب أو بالأحرى "طبعاً"، هذه ترجمة مفيدة لأنها تسمح لقراء لغة أخرى أن يطلعوا على كتاب رفيع يعتبر من أعظم ما ألف في مجال النثر الفني العربي في الأندلس وفي سائر دار الإسلام". ولولا هذه الجهود المبذولة في مشروع الترجمة لبقيت المقامات اللزومية شبه مجهولة لمعظم دارسي الغرب المهتمين بالأدب الأندلسي. فمما لا يخفى أن النص العربي للمقامات لا يقدر على قراءته وفهمه سوى أقلية نادرة من هؤلاء الباحثين الغربيين، ويرجع ذلك إلى ما يحتوي عليه هذا النص من غرائب وتهكم وإشارات مبهمة وعبارات غير مألوفة قديمة أو مهجورة.

أما اختيار اللغة الإسبانية للترجمة فهو اختيار طبيعي ومبرر لكون المترجم إسباني اللغة ولكون إسبانيا مركزاً من الدراسات المتعلقة بالتراث الأندلسي في أيامنا هذه وإن كانت اللغة أقل انتشاراً في الأوساط العلمية من اللغة الإنجليزية أو الفرنسية. وإذا أخذنا بعين الاعتبار المطابقة المطلوبة ما بين الأصل العربي والترجمة الإسبانية لا بد من ملاحظة بعض العوائق التي تؤدي إلى وجود شيء من النقصان في الترجمة يمكننا تقسيمه إلى قسمين:

1- نقصان في المعاني والإشارات: إن المقامات اللزومية مليئة بالإشارات إلى جوانب مختلفة من التراث والأدب العربيين، فهناك الكثير والكثير من أسماء الأماكن والأعلام والتلميحات إلى أبيات قديمة أو إلى قصص من التراث مما يضطر المترجم إلى إدخال ملاحظة في أسفل الصفحة وذلك للحيلولة دون عدم الفهم. ومع ذلك ما

زالت تبقى هناك إشارات وتلميحات عديدة بدون شرح أو توضيح كافيين فيترتب عليها فقدان قسط من المضمون الكامل.

2- نقصان في الإيقاع وفنون البلاغة : من طبيعة السجع التزام التوازن الصرفي بين الفقرات أو الوحدات الإيقاعية للنثر المسجوع. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تقليد هذا الإيقاع الخاص بالأصل العربي في الترجمة لأن اللغة الإسبانية خلافا للعربية لا يعتمد نظامها الصرفي على قوالب وصيغ متساوية متجانسة من حيث عدد الحروف وترتيبها في الكلمة. وشأن الترجمة في ذلك شأنها فيما يتعلّق بفنون البلاغة من المجاز والاستعارة والكناية والجناس وإلى غير ذلك. إن معظم جماليات الأصل العربي وليس البعض منها فقط غير منعكسة في الترجمة الإسبانية. والنتيجة من كل ذلك أن قارئ الترجمة لا يلقى إلا قسطا قليلا من عنصر هام في فن المقامة العربية وهو النمط اللغوي الذي تعتمد عليه المقامة (18).

وبعد تحديد العوائق والعراقيل التي تواجهها ترجمة المقامات إلى لغة أخرى لا بد أن ننظر إلى النتيجة المتحصّل عليها وأن نقرّر صلاحياتها وإفادتها. إن عملية الترجمة ليست في واقع الأمر إلا محاولة نقل مجموعة من الألفاظ من لغة إلى لغة ثانية، ولا يعني ذلك مجرد محاكاة الأصل. فالغرض الأخير هو أن تثير الترجمة في نفس القارئ انطبعا شبيها بالانطباع المثار عند قارئ النص الأصلي، وهذا ما ترمي إليه كل ترجمة. وللوصول إلى مثل هذا الغرض هناك وسائل شتى لكل واحدة منها إيجابياتها وسلبياتها. المهم أن الطريق قد قطع أو بالأحرى قطع طريق من الطرق المتوفرة أمام المترجمين. والنتيجة أن المقامات اللزومية يمكن من الآن فصاعدا الاطلاع عليها من خلال ترجمة إسبانية قد تقرب قراء الإسبانية من جوهرة من جواهر الأدب العربي.

(18) لا أوافق الرأي المتداول لدى الباحثين الذاهبين إلى أن المقامة عرض لقدرات المؤلف اللغوية ومواهبه البلاغية ليس إلا، فلها مضمون مهمّ وتعبير ناقد للمجتمع الذي نشأت فيه.

إن كوني صاحب الترجمة المذكورة يمنعي من تقدير نقدي لها. القراء والدارسون لهم الكلمة الآن. لكني أريد أن أشير في هذا الصدد إلى أن مجلة تهتم بالدراسات العربية في إسبانيا أصدرت في عددها الأخير (سنة 2001)⁽¹⁹⁾ مقالة نقدية طويلة حول ترجمتي للمقامات اللزومية. وصاحب المقالة النقدية كما كان متوقعا هو الأستاذ مونرو المذكور الذي يعتبر ترجمة المقامات اللزومية إلى اللغة الإسبانية خطوة ذات أهمية بالغة نحو معرفة الأدب الأندلسي في أواسط الغرب. أما الرأي المعبر عنه في هذه المقالة في ما يخص قيمة الترجمة فهو إيجابي بالرغم من بعض الملاحظات حول ترجمة بعض الفقرات أو بعض الجمل التي يختلف فيها رأي الدكتور مونرو عن رأي صاحب الترجمة. وفي مجلة الأدب العربي⁽²⁰⁾ المنشورة ما بين هولندا والولايات المتحدة صدرت مقالة نقدية أخرى لباحث الامريكي د. يونغ في خصوص ترجمة المقامات اللزومية عبر فيها عن أهمية الترجمة ونوعيتها ميرزا جودتها العلمية رغم صعوبتها. ويمكن القول على وجه التلخيص إن رد الفعل على ترجمتي للمقامات اللزومية للسرقسطي عند الأوساط المعنية بالأدب الأندلسي والعربي هو إيجابي حتى الآن وإن بقي باب المناقشة مفتوحا على مصراعيه للأخذ والرد.

J.T. Monroe (notas bibliográficas), Al-Qanṭara 22/1 (2001), (19)

211-225.

D. Young (review article), Journal of Arabic Literature, 32/1 (2001), 74-83. (20)